ثنائية الحياة والموت بين الشاعر أبي ذؤيب الهذلي(٢٧هـ) والشاعر أبي العلاء المعري(٤٤٩هـ)

ا.م.د عبد الهادي عبد الرحمن الشاوي، الأستاذ هادي سعدون العارضي
جامعة الكوفة/ كلية التربية الأساسية

ملخص

ثنائية الحياة والموت بين الشاعر أبي ذؤيب الهذلي(٢٧هـ) والشاعر أبي العلاء المعري(٤٤٩هـ)

ظلت ثنائي الحياة والموت شاغلا لجميع ابناء البشر عبر القرون وما زالت، وكل نظر اليها من خلال تكوينه الثقافي ونضجه الفكري، متأثرا بعوامل وجوده وصيرورته، والشاعر أكثر من شغلته هذه الثنائي لتتخذ لها مظاهر مختلفة ومؤثرة وفاعلة في نصه الشعري، وبحثنا يقوم على دراسة هذه النظرة بين شاعرين يبعد بينهما الزمان والمكان لنكتشف قرب التشابه وبون الاختلاف بين النظرتين ؛ لذلك قسم البحث على ما يأتي:

- تمهيد: أولية فكرة الحياة والموت في الشعر العربي .
- المبحث الأول: ثنائية الحياة والموت في شعر أبي ذؤيب الهذلي (حياة الشاعر بما فيها من مؤثرات – تطور اهتمامه بهذه الثنائية،عامل الصدمة (وفاة أولاده ....)
- المبحث الثاني: ثنائية الحياة والموت في شعر أبو علاء المعري ويتضمن هذا المبحث أثر العمى في تكوين شخصية الشاعر، ظروف الشاعر الاجتماعية، وعي الشاعر وثقافته، ومن ثم ظهور نظرته المائزة لهذه الثنائية.

كل ذلك مشفوعا بنص دالة على ما نريد تأكيده وابانته

- الخاتمة والنتائج التي تمكنا من كشفها والدلالة عليها.

– Abstract Asst. Prof. Dr. Abd al-Hadi Abd al-Rahman al-Shawi

The duality of life and death between the poets Abu Dhu'ib Al-Hudhali (27 AH) and Abu Al-Ala' Al-Ma'ari (449 AH)

The duality of life and death has preoccupied all humans throughout history and continues to do so. Everyone examined it through the lens of his cultural background and intellectual maturity. He is impacted by the factors of his existence and becoming. And the poet is more than engaged by this couple to incorporate various ،influential ،and effective elements into his poetic text. Our research is centered on examining the viewpoints of two poets who are separated by time and space to discover the similarities and differences between the two viewpoints. Therefore ،the research is separated into the following sections:

Introduction: The importance of the concepts of life and death in Arabic poetry.

-The first topic: the duality of life and death in the poetry of Abi Dhu'ib Al-Hudhali (the poet's life ،including its influences - the development of his interest in this duality ،the shock factor (the death of his children(....

-The second topic: the duality of life and death in the poetry of Abu Alaa Al-Maari. The influence of blindness on the creation of the poet's personality ،the poet's social situations ،the poet's consciousness and culture ،and the birth of his distinct vision of this duality are all covered in this topic.

All of this is accompanied by a text indicating what we want to confirm and demonstrate.

-The conclusion and the results that we were able to detect and indicate.

ثنائية الحياة والموت بين الشاعرين أبي ذؤيب الهذلي وأبي العلاء المعري

التمهيد: مفهوم ثنائية الحياة والموت:

اتخذ التمهيد هذا العنوان ليكون مدخلا تعريفيا لابد منه لكشف ماهية هذه الثنائية التي نريد الوقوف عند بالتحليل لنتاج شاعرين من كبار شعراء العربية عاشا في عصرين متباعدين وعانا ظروفا اجتماعية وثقافية متباينة، كانت حافزا لنا للولوج الى عالميهما الشعري وكيف نظرتهما الى ثنائية الحياة والموت الى لا تفارق الانسان وان اختلفت رؤيته اليها وتباينت بتباين معتقداته وأرائيه الفلسفية، لذلك وجب الوقف على الدلالات اللغوية والاصطلاحية لهذه الثنائية:

١- الثنائية في اللغة: يشير الجذر اللغوي (ث، ن، ي) الى تكرار الشيء مرتين متواليتين،لأن الثني هو ((رد الشيء بعضه الى بعض، وفي ذلك يقول ابن منظور(ت٧١١ه): ((ثنى الشيء ثنيا رد بعضه على بعض، ثنيت الشيء ثنيا عطفته، ومنها يقال ثنيته إذا صرت له ثانيا...))[١] ونستخلص منه أن المعنى اللغوي للثنائية هو الإعادة، والتكرار، والعطف بما يشابهه أو يضاده.

الثنائية في الاصطلاح: ذكر صاحب المعج الفلسفي ان الثنائي من الأشياء هو ((ما كان ذا شقين، والثنائية هي القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون، كثنائية الأضداد وتعاقبها، وثنائية الواحد والمادة ...أو ثنائية عالم المُثل وعالم المحسوسات عند افلاطون

[١] -لسان العرب، ابن منظور، مادة: ثنى

...وهي كون الطبيعة ذات مبدأين ...))[٢] ولقد وردت هذه الثنائيات في القرآن الكريم مجتمعة ومتنوعة، وفي مواضع كثيرة منها: ثنائية الخير والشر، قال تعالى ((وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون))سورة البقرة ٢١٦

والثنائية هنا بين الخير والشر وبين العلم وعدمه،ونجد ثنائيات أخر مثل ثنائية (الظلمات والنور) والحياة والموت، والسموات والأرض، قال تعالى ((الحمد لله الذي خلق السموات والأرض،وجعل الظلمات والنور...)) سورة الأنعام:١

وكثير تواردها أيضا في أقوال العرب ونتاجهم الأدبي شعرا أو نثرا،حكمة أو مثلا، ومن ذلك قول الإمام علي (عليه السلام) ((أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فأن الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل ...))[٣]وهنا جاءت الثنائية ضدية لكشف دلالة وانارة سبيل وتقوية حجة، وكشف غموض، وازالة لبس.

ونجد من النقاد العرب القدامى من اعتنى بهذه الثنائية وتنبه اليها وخاض في غمارها وابدع في توضيحها وفي الكشف عن ثرائها الفني والجمالي والمعرفي في النص الأدبي،ومنهم الجاحظ(ت٢٥٥ه) فهو مثال ظاهر لمن اعتنى بهذه الثنائية، اذ يرى أن الأشياء في الكون أما متفقة أو مختلفة أو متضادة، وكلها ترجع الى الأصل الثنائي المحوري في الوجود المتمثل بالحركة والسكون، وفي ذلك يقول ((وتلك الأنحاء الثلاثة،كلها في جملة القول: جماد ونامٍ، فكأن حقيقة القول في الأجسام من هذه القسمة أن يقال نامٍ وغير نامٍ))[٤] هذا في الظواهر المادية،ولكن نجد لها حضورا لافتا في ظواهر النفس البشرية وفي سلوكها وتعاملها مع الأحداث، في الظاهرة والمتجلية في الحزن والفرح، والضيق والسعة، والأمل واليأس، والخوف والأمن، والحياة والموت، حتى لتكاد الحياة أن تضج وتزخر بها حضورا وغيابا، طافية على سطحه أو غائرة في تفاصيله، مؤثرة فاعلة لا غنى عنها .

أما في النقد الأدبي الحديث فقد توضحت كثيرا على يد أبرز علماء هذا العصر في اللغة وصاحب النظرية البنيوية،ألا أنه العالم اللغوي دي سوسير الذي قامت نظريته واستقامت على مبدأ الثنائية: ثنائية الدال والمدلول، ثنائية الكلام واللغة، وثنائية الآني والتعاقبي، وهذ فيه دلالة واضحة على الاهتمام بهذه الثنائية التي لها فعلها في الوجود الطبيعي وفي النتاج الأدبي، غير أننا لا نعدم أن نجد من يخالف هذه الثنائية ويعدها قيدا وضع للحياة، وذلك ما ذهب اليه منظرو المدرسة التفكيكية،ولسنا هنا في قضية مناقشة الآراء وأو تقيمها،بل نحن أمام ظاهرة نراها تسطع في شعر الهذلي والمعري اللذان اقمنا عليهما هذه الدراسة، اذ سوف تنظر الى أرائهم في الحياة والموت، وان كانا مبتعدين في الزمان والمكان ومختلفين في البيئة والنشأة، وهذا ما سنحاول كشفه وابانته.

٢- الحياة والموت:

يعرف الراغب الأصفهاني(ت٥٠٢ه): الموت بأنه((انتقال من دار التكليف والعمل الدنيوي الى دار الثواب والجزاء الأخروي))[٥]وهو تغيير في الوظيفة ويتبعه تغير في النتائج، فيما يرى آخر بأن الموت ((توقف معالم الحياة في الجسم الطبيعي من حركة ونمو وحس وتنفس وقدرة تكاثر والتغذي، وهو نهاية مرحلة تنفصل عندها ثنائية الوجود الإنساني (الجسد الروح)ليعود كل عنصر الى عالمه الأزلي))[٦] والتعريف هنا يؤكد وجود الثنائية التي يحدث لها انفصال لابد منه، وهذا الانفصال ظل الهاجس الذي راود البشر منذ خلقه، فنظر اليه بخوف وريبة، وتجاهله أحيانا لعله يسعد بلحظات يظن أنها تنقذ روحة من دوامة التفكير والخوف من المجهور، وتكونت تبعا لذلك مجموعة من القيم والتقاليد والطقوس ظلت حاضرة في النتاج الفني الذي كشف لنا محوريتها في وجوده ((اذ ارتبطت مشكلة الموت بمفهوم الزمن والعالم المتغير، وكل ما أحاط الإنسان هو تغير مستمر، والإنسان وحده من أدرك خطورة هذه المشكلة وأحس بها، فغدا أمام الموت مهزوما عاجزا حياله))[٧] وهذا الإحساس هو ما يهتم به البحث ليجده مصورا في الشعر الجاهلي وفي شعر أبي ذؤيب الهذلي خاصة، فيما ظل هذا الإحساس يتخذ مظاهر مختلفة تبعا لمتغيرات الواقع الثقافي وذلك ما نحاول تلمسه في شعر أبي العلاء المعري، لما فيها من اهتمام واضح ولا يخفى على الدارس الوقوف عنده من أجل كشف اغواره وبيان جماله، فتباين الظروف الاجتماعية بين الشاعرين ترك بصماته على نتاجهما الشعري، اذ لا يخفى ما للمقام من فعل في انتاج النص الأدبي وفي توجيه دلالاته، وابانة مقاصده، ومن ثم ايضاح صوره التي تأطرت بما يحمله الشاعر من أفكار ومن نظرة للوجود الذي يعيشه.

المبحث الأول:

ثنائية الحياة والموت في شعر أبي ذؤيب الهذلي:

إن ما يجلي بيان هذه الثنائية ويقف على مساراتها وحضورها في النص الأدبي (الشعري) عند الشاعر أبي ذؤيب الهذلي، يتطلب الكشف ولو بشيء من الايجاز عن حياة الشاعر، فما انفكت علاقة هذه الثنائية بحياته وظروفه النفسية الحاكمة في كثير من نتاجه الأدبي .

فالشاعر أبو ذؤيب الهذلي هو: (خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد...بن تميم بن سعد بن هذيل))[٨] ولقد ترجمت له كثير من كتب التاريخ والأدب مثل كتاب أنساب الأشراف للبلاذري[٩] وكتاب الأعلام للزركلي[١٠] وغيرها وكلهم عدّوه من الشعراء المخضرمين اذ أدرك الجاهلية والإسلام، وقد اختلفوا في رؤيته للنبي (صلى الله عليه وآله) وكلها روايات بعضها متضاربة وبعضها الأخر قد

[٢] - المعجم الفلسفي، جميل صليوا، دار الكتاب اللبناني، بيروت : ١/ ٣٧٩

[٣] - نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة، بيروت : ج٢/ ١٨١

[٤] - الحيوان، الجاحظ،تحقيق، عبد السلام هارون،المجمع العلمي الاسلامي، بيروت، ١٩٦٩م :٢٦/١

[٥] -تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، الراغب الأصفهاني،دار مكتبة الحياة، بيروت : ١٠٨

[٦] -الأخلاق في الفكر العراقي القديم، حسن فاضل، بيت الحكمة، بغداد،١٩٩١م: ٤٨

[٧] -بنية القصيدة العربية المعاصرة، خليل الموسى، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٣م :١٤٧

[٨] - طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي : ١٢٣/١

[٩] - انساب الأشراف، للبلاذري :٢٥٣/١١

[١٠] - ينظر كتاب الأعلام،للزركلي :٣٢٥/٢

أسهب في الحديث بما يورث الشك، ومهما يكن فالروايا قابلة للطعن والشك والتصديق، فيما تكاد تجمع على وفاته، قال السكري ((هلك أبو ذؤيب في زمان عثمان بن عفان رحمه الله في طريق مصر مع بن الزبير ودفنه ابن الزبير))[١١]فيما حدد الزركلي سنة وفاته بسنة سبع وعشرين للهجرة .

اما شعره فقد عدّه ابن سلام الجمحي في كتابه (طبقات فحول الشعراء) في الطبقة الثالثة من الفحول فقال((كان أبو ذؤيب الهذلي شاعرا فحلا لا غميزة ولا وهن، قال عمرو بن العلاء: سئل حسان من أشعر الناس،قال حيًا أو رجلاً، قال حيًا،قال أشعر الناس حيًا: هذيل، قال (ابن سلام) وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب))[١٢]وهذه المقتبسات تدل بما لا يورث الشك على شاعرية أبي ذؤيب الهذلي ومكانته الأدبية،لذلك كان اختيارنا له قد سلك الطريق السليم في الكشف عن كنوز الشعر العربي ورموزه وتجليات ابداعهم رغم بعد الفاصلة الزمنية فيما بيننا، فقد ظل شعره حيا تتناقله الاسن وتصغي اليه الانفس قبل الاسماع لما فيه من سمات الفن والابداع أرفعها، لذلك وجب الخوض في توارد هذه الثانئية في شعره بعد أن نعرفها ونستجلي مكامنها ونظهر جماليتها وأثرها النفسي في المتلقي، فثنائية الحياة والموت ثنائية أزلية ما فارقت فكر الانسان وظلت تؤرقه فينظر اليها على وفق ثقافته ومعتقده وظروف حياته.

فالشاعر لكونه الأكثر احساسا والأقدر على اقتناص اللحظة وتوثيقها وتأطيرها بما لديه من مقدرة فنية ((فقد تأمل الشاعر شأن الوجود، فوجد التبدل والتحول والزوال، وتوقف كثيرا أمام تلك الظواهر واختلف رأيه باختلاف موقفه الفكري وتباينت صور التناول بين أديب وأخر وشاعر وشاعر))[١٣]وهذ التباين يبدو واضحا عند الشاعر أبي ذؤيب الهذلي، فقد تبدلت حياته وتغيرت ظروفه الاجتماعية والنفسية،اذ يمكن القول أنه مر بأربع مراحل هي:

١- النشأة في العصر الجاهلي
٢- خسارة الحبيب، وخيانة القريب
٣- اعتناقه الاسلام وهجرته غازيا الى شمال أفريقية
٤- حادثة موت أولاده الخمسة بالطاعون

كل هذه المتغيرات أفرزت نظرة للواقع وقدمت نتاجا مختلفا تلون بما مر به الشاعر وانفعل وتأثر، وتنعكس هذه المتغيرات لتجد لها حضورا في شعره،فحياة الشباب بما فيها من لهو ودعة ونشاط وقوة، ومغامرات، وكلها محكومة بفعل الدهر وصروفه، ((فالعرب ينسبون الى الدهر عامة ما يكرهون من فرقة أو فقر أو موت ونحو ذلك، فلا غرابة ان الشاعر وهو حالة العشق لا يستطيع الا ان يصف الدهر الذي يظنه الفاعل في كل ما يعانيه،فهو الزمان قد اتخذ عند الشعراء الجاهليين هذه التسمية فقرنوا فيه كل شيء من مما يصيبهم في الفرح وفي الحزن في الخير وفي الشر،فهو وان بدأ قصيدته بوصف الدهر وكأنه يريد تعريفه ليزرع في نفس المتلقي القادر الكافي من التأثر،يقول:

هَلِ الدَهرُ إِلّا لَيلَةٌ وَنَهارُها وَإِلّا طُلوعُ الشَمسِ ثُمَّ غِيارُها
أَبى القَلبُ إِلّا أُمَّ عَمروٍ وَأَصبَحَ تُحَرَّقُ ناري بِالشَكاةِ وَنارُها
وَعَيَّرَها الواشونَ أَنّي أُحِبُّها وَتِلكَ شَكاةُ ظاهِرٌ عَنكَ عارُها
فَلا يَهنَأَ الواشينَ أَنّي هَجَرتُها وَأَظلَمَ دوني لَيلُها وَنَهارُها
فَإِن أَعتَذِر مِنها فَإِنّي مُكَذَّبٌ وَإِن تَعتَذِر يُردَد عَلَيها اِعتِذارُها

تبتدأ القصيدة بذكر الهر وتوصيفه فالدهر والزمان مترادفان عند العرب في الجاهلية،فازمن عند الشاعر الجاهلي زمانان((طبيعي واجتماعي، فالأول هو حركات الكواكب وحدوث الليل والنهار والثاني هو المتغيرات والثوابت التي تتحرك داخل هذا الزمن الطبيعي كالناس والملوك والأحداث والموت والخلود))[١٤]والقصيدة هنا وان ابتدأت بذكر الدهر الذي دائما يدل ذكره في الشعر الجاهلي على الالم والمصيبة والحزن فقد ((كان الرجل في الجاهلية اذا أصيب بمصيبة أو رزء أغرى بذم الدهر))[١٥]فالحالة النفسية التي عليها الشعر قادته الى استعمال هذه الالفاظ ليكشف ما يعانيه، ولتوضح لنا هذه الابيات التي اقتطعناها من قصيدته،روحه العاشقة للحياة المتفاعلة معها المغامرة في أرجائها، الواصفة لمحاسنها من خلال وصفه لمعشوقته، فهي ذات حسن تتضح دلالته في واحدة من سماتها ألا أن فيها عذب لذيذ، اذ يقول:

كأن على فيها عقار مدامةٍ سلافة راحٍ عتّقتها تِجارها[١٦]

فلهو الحياة وغضارتها تبدو واضحة في تفاصيل وصفه لها من خلال وصف حالة العشق والهيام، وهو منسجم مع الحياة في لهوها على غير ما يعتقد من أنها قصيرة لا تعدو ان تكون أياما وليال، ويختلط عنده شعوره المتوثب للحياة وزهوها وانشغاله بها، وهو لا يخالف ما اعتاده الشعراء الجاهليون من ذكر مغامراتهم العاطفية وتصوير حالتهم النفس بما لا يدع شكا من أن الحياة بشكلها ومناخاتها الجاهلية حاضرة في شعره، فالشعراء الجاهليون ألفوا مخاطبة الديار والوقوف بها وتذكر ما حوادثها وبث زفرات الوجد والحنين الى تلك الديار ومن مر بها أو أقام،وذلك ما نراه في قوله:

أمِن آلِ لَيلى بِالضَجوعِ وَأَهلُنا بِنَعفِ قُوَيٍّ وَالصُفَيَّةِ عيرُ
رَفَعتُ لَها طَرفي وَقَد حالَ دونَها رِجالٌ وَخَيلٌ بِالبَثاءِ تُغيرُ
فَإِنَّكَ عَمري أَيَّ نَظرَةِ ناظِرٍ نَظَرتَ وَقُدسٌ دونَنا وَوَقيرُ

---

[١١] -شرح أشعار الهذليين،للسكري:٣/١
[١٢] - طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي : ١٣٢/١
[١٣] -تحولات خطاب الموت في الشعر العربي، بحث،هيلة عبد الرحمن المنيع، جامعة الأميرة نورة عبد الرحمن، المملكة العربية السعودية: ٤٥٧
[١٤] -تاريخ الفلسفة في الاسلام، ت. ج. دي بور، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة .١٩٥٧م: ١٥٣
[١٥] - جمهرة اللغة،ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي ت ٣٢١هـ، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند .١٣٤٥هـ: ٢/ ٢٥٨
[١٦] -ديوان أبي ذؤيب الهذلي : ٦٤

دَيارُ الَّتي قالَت غَداةَ لَقيتُها صَبَوتَ أَبا ذِئبٍ وَأَنتَ كبيرُ[١٧]

ونجد للشاعر قصائد كثيرة تضج بحبه للحياة وتعلقه بمفاتنها ولهوه بها،حتى نجد في احدى قصائد يتسأل عما يقوم به من أفعال أهي أفعال رشيدة،أو غير ذلك،ويدل على ما ذهبنا اليه قوله:

وقد طفتُ من أحوالها وأردتها سنينَ فأخشى بعلها وأهابها
عصاني إليها القلبُ إني لأمرهِ سميعٌ فما أدري أرشدٌ طلابها[١٨]

ويبدو أن الرشد كان قادم إليه مع تبدل صروف الدهر ومفاجآته، فما خفي عنه صار قدرا صادما، فراقا محتوما، وتكشف صفات الناس من حوله واضحا جلياً،فها هو يخسر من أحب بسبب خيانة قريبه(ابن عمه)يدعى خالدا، بعد أن كان مرسالا بينهما، فخانه، وهذا ما جعله يقول:

ألا هل أتى أم الحويرث مرسلٌ نعم خالدٌ إن لم تعقهُ العوائقُ
يرى ناصحاً في ما بدا وإذا خلا فذلك سكينٌ على الحلقِ حاذقُ[١٩]

فشكلت هذه الخيانة نقطة تحول في تفكير الشاعر ونظرته الى ما حوله فليس كل ما يحيطه يمكن الاطمئنان إليه، والثقة به وتلك تشكل بوادر الفرقة بين الواقع وبين الحلم والمتخيل والمأمول،ولكنه يجب بجانب هذه الظاهرة موقفا أخر يعيد إليه التوازن المطلوب في النظر الى الحياة،فالي جانب الخيانة كانت هناك جوانب مشرقة من الحياة تمثلت في خصال ابن عمه (نشيبة) الذي ظل يرثي ويبرز مآثره وينوه بصفاته الحميدة،وقد نجده يقارن بينه وبين من خانه وكلاهما أخوة، ولذلك بدت الحياة له بوجهين، غير أن هذين الوجهين لم يستقرا وكان في صراع وجودي الى أن ظفر الجانب المأساوي في حياته،حين فقد ابن عم له يدعى (نشيبة) الذي ظل يرثيه ويبث حزنه عليه في كثير من قصائده ومنها قوله:

لعمرك أي يوم أنظر صاحبي على أن أراه قافلاً لشحيحُ
وان دموعي أثره لكثيرة لو أن الدموع والزفير يريحُ
فو الله لا ألقى ابن عم كأنه نشيبة مادام الحمام ينوحُ[٢٠]

ولعل هذه الحادثة قد تركت أثرا واضحا فالدموع كثيرة،والزفير لا يريح،والحمام ينوح وكلها دلالات حزن وتشاؤم،فضلا عن كون الشاعر الجاهلي بطبيعته متشائم في الغالب ((فهو لا يأمل الحياة ولا يبدي رأيه فيها إلا حين يدفعه الى ذلك ما يصادفه من ألم وحزن، ومن هنا تعرضوا لجوانب الحياة غير البهيجة دون غيرها))[٢١]

ونستنتج من ذلك أن موقفه من الحياة والموت حددته ثلاثة عوامل هي:أولا: الطبع الجاهلي المتشائم،ثانيا: فقده لابن عمه وهو قريب لنفسه يرى فيه خلال حميدة افتقدها فظل حزنا عليه يرثي ويذكر فراقه المؤلم، ثالثا: فقده لأبنائه بمرض الطاعون وهو في شمال أفريقيا، وهي الحاثة الأكثير إيلاما وحضور في نفسه وشعره، فصارت تلك حالة انتكاسة واضحة في عشقه للحياة وجعلته يخاطب النفس بأسلوب استفهامي انكاري ليزيد من فعل التأثير ويوضع عمق المعاناة وقوة الصدمة وهولها،مستعملا ما اعتاد عليه الشعراء الجاهليون من الحاق المصيبة والحزن والألم بالدهر، فكانوا ينعتونه ويصفونه بأوصاف التوحش والقسوة ((حتى بلغ الأمر بالجاهلي أنه حين يفجع يشتم عام الفجيعة أو شهرها أو ساعتها))[٢٢]ولقد نهى الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله)عن سب الدهر،فقال((لا تسبوا الدهر، فأن الله عز وجل قال: أنا الدهر، الأيام والليالي لي أجددها وأبليها و آتي بملوك بعد ملوك))[٢٣] ويبدو من هذه الافتتاحية للقصيدة أن النمط الجاهلي ظل مترسخا في نفسية الشاعر وفي أسلوبه، فلا نرى أية دلالة تحيلنا الى مفاهيم اسلامية في قصيدته هذه، بل نراه قد سلك ذلك المسلك الجاهلي في ذم الدهر ولعنه والتطير منه،ومن أجل الايغال في هذا الوصف ودفع التأثير الى أبعاد أكثر فاعلية،لاذ الشاعر بهذا الأسلوب، فنراه يقول:

أَمِـــنَ الـمَـنُـونِ ورَيْـبِـهـا تَـتَـوَجَّـعُ والـدَّهْـرُ لـيـسَ بِـمُـعْـتِـبٍ مَـنْ يَـجْـزَعُ
قالتْ أُمَيْمَةُ: مـا لِجِسْمِكَ شاحِباً مُـنْـذُ ابْـتُـذِلْـتَ ومِـثْـلُ مـالِـكَ يَـنْـفَـعُ
أَمْ مـا لِـجَـنْـبِـكَ لا يُـلائِـمُ مضْـجَـعاً إلاَّ أَقَـضَّ عَـلـيـكَ ذَاكَ الـمضْـجَـعُ
فـأَجَـبْـتُـهـا: أَمَّـا لـجِـسْـمـي أَنَّـهُ وْدَى بَـنِـيَّ مِـنَ الـبـلادِ فَـوَدَّعُـوا
أَوْدَى بَـنِـيَّ وأَعْـقَـبُـونِـي غُـصَّـةً بَـعْـدَ الـرُّقَـادِ وعَـبْـرَةً لا تُـقْـلِـعُ
سَـبَـقُـوا هَـوَيَّ وأَعْـنَـقُـوا لِـهَـواهُـمُ فَتُـخُـرِّمـوا، ولُـكـلِّ جَـنْـبٍ مَـصْـرَعُ
فَـغَـبَـرْتُ بَـعْـدَهُـمُ بِـعَـيْـشٍ نـاصِـبٍ وأَخـالُ أَنِّـي لاَحِـقٌ مُـسْـتَـتْـبَـعُ
ولـقـد حَـرَصْـتُ بـأَنْ أُدافِـعُ عـنـهـمُ فـإذا الـمَـنِـيَّـةُ أَقْـبَـلَـتْ لا تُـدْفَـعُ
وإذَا الـمَـنِـيَّـةُ أَنْـشَـبَـتْ أَظْـفـارَهـا أَلْـفَـيْـتَ كـلَّ تَـمِـيـمَـةٍ لا تَـنْـفَـعُ
فـالـعَـيْـنُ بـعـدَهُـمُ كـأَنَّ حِـدَاقَـهـا سُلِـمَـتْ بِـشَـوْكٍ فَـهْـيَ عُـورٌ تَـدْمَـعُ
حـتـي كـأَنِّـي لـلـحَـوادِثِ مَـرْوَةٌ بِـصَـفـا الـمُـشَـرَّقِ كُـلَّ يـوم تُـقْـرَعُ
وتَـجَـلُّـدِي لِـلـشَّـامِـتِـيـنَ أُرِيـهِـمُ أَنِّـي لِـرَيْـبِ الـدَّهْـرِ لا أَتَـضَـعْـضَـعُ
والـنَّـفْـسُ راغِـبَـةٌ إذَا رَغَّـبْـتَـهـا وإذَا تُـرَدُّ إلـى قَـلـيـلٍ تَـقْـنَـعُ

---

[١٧] - المصدر نفسه : ٦٢
[١٨] -ديوانه :٥٨
[١٩] - المصدر نفسه :٩٠
[٢٠] -ديوانه : ٨٩
[٢١] - الحياة والموت في الشعر الجاهلي، الدكتور مصطفى عبد اللطيف جاؤوك، منشورات وزارة الاعلام العراقية،١٩٧٧م: ٢٢٧
[٢٢] - الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام،د.عبد الإله الصائغ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام،بغداد، ١٩٨٢م: ٦٥
[٢٣]- مسند أحمد بن حنبل،أحمد بن حنبل بن هلالت٢٤١هـ، المطبعة الميمنية، القاهرة،١٣١٣هـ :٤٩٦/٢

ولَـئِـنْ بِـهِـمْ فَـجَـعَ الـزَّمـانُ ورَيْـبُـهُ إنِّـــي بِـــأَهْـــلِ مَـــوَدَّتِـــي لَـمُـفْـجَّـعُ
كَمْ مِنْ جَمِيعِ الشَمْلِ مُلْتَئِمِ القُوَى كـانـوا بـعَـيْـشٍ قَبْلَـنـا فَتَـصـدَّعُـوا
والـدَّهْـرُ لا يَـبْـقَـى عَـلَـى حَـدَثَـانِـهِ جَـوْنُ الـسَّـرَاةِ لـهُ جَـدَائِـدُ أَرْبَـعُ[٢٤]

فظل الشاعر يؤكد فعل الدهر فهو لا يبقي الاقوياء وان عظموا، وما كان أمامه إلا التجلد الذي هو صفة متوارثة عند العرب يعتزون بها، ويردون بها كيد الشامتين، فالمصيبة هنا مصيبتان: فقد الأبناء الخمسة، والخشية من الشماتة التي يفوق فعلها عند الجاهلي فعل الفقد والخسارة، لذلك لجأ لوصف ثباته وعزيمته فهي ك(المروة) الحجرة الصماء الصلدة التي ظلت كل يوم تقرع في باب سوق من أسواق العرب في البحرين، وهذا التشبيه جاء به ليقرب صورته، ويحدث تأثيره، ويقوي حجته، حين يؤكد أن الدهر سيفرق كل شمل ويوهن كل قوة، ولم نلمس في قصيدته ألفاظا اسلامية من قبيل (الصبر، التوكل، الرحمة، المغفرة، الدعاء....وغيرها) فقد غابت كليا عن ساحة نصه الشعري، وتدل ألفاظ أخر في قصيدته على تصور الجاهلي للحياة، ونظرته الى الزمن أو الدهر، أو الحدثان،أو الحوادث، فكل هذه المسميات تشعره بالرهبة والخوف، ولكنها لا تفل عزيمته،فدائما ما كان يود أن يلاقيها وان كرهها، فالحوادث التي أرقته وسلبت سعادة على ما يملك من المال، نراها في أشعر الجاهليين قد ترد بلفظ الحدثان أو الحوادث، فقد تحل ((محل الحدثان فتؤدي وظيفتها في: اتلاف المال،أو النفس، أو المباغتة، لذلك نراهم يدعون للحبيبة بالسلامة على الحوادث،ومن ذلك قول عبد المسيح بن عسلة:

ألا يا أسلمي على الحوادث فاطما فان تسأليني تسألي بي عالما[٢٥]

فلا غرابة في التزام الشاعر برثائه لأبنائه بما اعتاد عليه من سبقه من الشعراء،حتى وصفه للمنية لا يخرج عن وصف الجاهلين لها وتشبهها بالحيوان المفترس، وان لم يذكره بالتصريح فقد دلت الكناية المكنية عليه بألفاظ (أنيابها) وفيها دلالة التوحش والقوة والغدر،فهي مؤلمة في شكلها وفعلها،لذلك نظن أنه أحسن التشبيه وأجاد فيه وان كان غير مفارق لأوصاف الشعراء الجاهليين للمنية التي ظلت تتربص بهم،وهم في كثير حالاتهم لا يخشونها، فتوارد ألفاظ الموت وكثرتها في القصيدة دالة على عمق التأثر والاحساس بالألم الذي حتم معروف لا ينكره الشاعر أبدا((فألفاظ الموت عند الشعراء الجاهليين كثيرا منها هو اشارة الى الشيء الواجب كالحتم والمنية والحمام أو الى الوقت المحدد كالأجل واليوم))[٢٦] ومن هنا نستنتج أن الشاعر أبا ذؤيب الهذلي مدرك تماما لمصيره غير أنه يحاول أن يظهر التجلد وهي سمة الرجال الجاهليين،حين يدركهم الدهر بأنيابه،فلا أمل في الخلاص وكل الوقائع أمامه صادقة في بلاغتها، مجلية لما تريد، فما كان من الشاعر الا الاستجابة التي كشفت مضامين نفسه المكلومة، وعزمه على أن لا يركن لها وان عظمت مصيبته واشتد هولها فأحسن وصفها،متخذا أوصافها من تلك البيئة العربية الصحراوية بحيوانها وعاداتها الاجتماعية،وتغير وتقلب صروفها.

وفي الجانب الاخر نجد الشاعر أبي العلاء المعري قد اتخذ موقفا واضحا من الحياة حين تساوت لديه الظلمة الطبيعية بعد فقد بصره، وبعد أن ألقت العزلة الاجتماعية في داره ظلالها عليه ليقدم لنا نموذجا شعريا فريد ينكشف خلاله معتقداته وتتضح رؤيته للحياة والموت بجلاء ساطع، حين قدم للشعر العربي قصيدته الرائعة في الرثاء بقوله:

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي .... نَوْحُ بَاكٍ وَلَا تَرَنُّمُ شَادِ
وَشَبِيهٌ صَوْتُ النَّعِيِّ إِذَا قِيـ ...سَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِ
أَبَكَتْ تِلْكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَنَّـ ....تْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا الْمَيَّادِ[٢٧]

فقد تشابه عنده الليل بالنهار وصوت الغناء وصوت النعيب، فالكل سواد متشابه، فهي قصيدة رثاء لزمانه وحالته قبل أن تكون قصيدة في رثاء شخص أخر، يقول عنها الاديب طه حسين ((نعتقد أن العرب لم ينظموا في جاهليتهم واسلامهم ولا في بداوتهم وحضارتهم قصيدة تبلغ مبلغ هذه القصيدة في حسن الرثاء))[٢٨]وبالموازنة بين قصيدة الهذلي وقصيدة المعري يبدو الفرق واسعا ويرجع ذلك الى اختلاف الظروف الاجتماعية ومحددات الزمان والمكان وان تشابه الحزن وغمر الشاعرين بثقله، لكنه يظل ينفرد عند المعري بمسحة الفيلسوف الذي أمعن في الحياة وعرف ما تتركه من معاناة في نفس الشاعر،فالفرق بين نظرة التشاؤم الممزوج بالألم عند الهذلي،نظرة طبيعية لا اختلاف فيها عن سواه من شعراء الجاهلية سوى شدة الحزن وعظم المصيبة وقدرة الشاعر في اقتناص الألفاظ والصورية الموحية والصادحة بحزنه،اما ابو العلاء المعري فقد جاء في بيئة غير بيئة الهذلي وزمان غير زمانه وافكار وثقافة خليطة من ثقافات عدة اختلطت فكونت شخصية المعري، اذ ان طابع الحياة العقلية ونمو الاتجاه المعرفي والفلسفي وتبدل الظروف الاجتماعية أدى الى تغير وتنوع الصور الشعرية، وذلك ما نجده في قوله:

ودلّ على فضل الممات وكونه إراحة جسم أن مسلكه صعبُ
اذا افترقت أجزاؤنا حط ثقلنا وتحمل عبئا حين يلتئم الشعبُ[٢٩]

وفي هذا النص يبدو التبرم من الحياة واضحا وكذلك تتضح قضايا الموت بأشكال جديدة،لم يعرفها الشاعر الجاهلي، كالنشر والبعث والحساب وكلها تدل على ثقافة مختلفة ورؤية متباينة بين الشاعرين.

وسيتكفل المبحث الثاني بدراسة ظاهرة الموت والحياة في شعر المعري.

---

[٢٤] - ديوان أبي ذؤيب الهذلي : ٤٧
[٢٥] - المفضليات و المفضل الضبي،تحقيق، أحمد محمد شاكر،وعبد السلام هارون،دار المعارف، مصر ط٣,١٩٦٤م: ٣٥
[٢٦] - الحياة والموت في الشعر الجاهلي، الدكتور مصطفى عبد اللطيف جاؤوك : ١٠٠
[٢٧] - ديوان اللزوميات،ابو العلاء المعري، شرح كمال اليازجي،دار الجيل، بيروت: ٦٧/١
[٢٨] - تجديد ذكرى أبي العلاء، طه حسين، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢م : ٣٥
[٢٩] - ديوان اللزوميات : ١/ ٨٢

المبحث الثاني
ثنائية الحياة والموت عند أبي العلاء المعري(ت ٤٤٩ه)

التفكير في الحياة والموت عند الإنسان يبدأ بسلسلة متصاعدة، يُسرِّع في تصاعد هذا التفكير الظروف المحيطة بالفرد نفسه، فهناك من تتأخر لديه هذه الفكرة ؛ لانشغاله بمتطلبات الحياة، وملذاتها فتأخذ جميع أوقاته التأمليَّة، ولكنها سرعان ما تنمو وتتسارع في زوال هذه الأسباب، وقد تتقدم هذه الفكرة التأملية عنده، فتظهر بشكل مبكر في حياته عندما يكون الأمر معكوسا فقساوة الظروف وصعوبة العيش، وغيرها من الظروف المادية والمعنوية قادرة على تعميق تلك الفكرة في ذهن هذا الفرد ؛ لأن مسألة الحياة والموت فكرة ميتافيزيقية وجودية يشترك بها الجميع فتمس مدركاتنا الحسية والعقلية، فتبعث فينا التأمل بالمصير القابل .

ولعلَّ شاعرنا أبو العلاء المعري قد أحيط بظروف خاصة ساعدت كثيرا على تجلي هذه الفكرة عنده من أهمها فقدان البصر وهو في سن مبكر من حياته فلازمه الليل منذ الرابعة من عمره، فصادقه حبيسا له مجبرا منذ نعومة أظفاره [٣٠]، ومن البواعث الأخر في النشأة المبكرة لظاهرة الحياة والموت بشكل جلي في شعر المعري التربية الدينية القائمة على العلم، فعرف العلوم من والده وأهله، فقد عرفوا بالنزعة الدينية والشعرية [٣١].

ومن أجل بيان رؤية الشاعر المعري ومقارنتها بالهذلي لابد من تعميق البحث عن تلك الفلسفة الثنائية في قصائد المعري، والإلمام بتلك القصائد والوقوف عند جميعها ؛ لذلك سنقف عند قصيدته الداليَّة الرائعة التي تلقاها العربي وانتشرت جيل بعد جيل لنرى كيف رسمها فنيا ؟ وما تداعياتها التأثيرية في المتلقي ويبدأها بمقدمة المتبصر العالم بهذه الجزئية قائلا:

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي ....نَوْحُ بَاكٍ وَلَا تَرَنُّمُ شَادِ
وَشَبِيهٌ صَوْتُ النَّعِيِّ إِذَا قِيـ ....ـسَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِ
أَبَكَتْ تِلْكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَنَّـ ....ـتْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا الْمَيَّادِ
صَاحِ هَذِهْ قُبُورُنَا تَمْلَأُ الرُّحْـ ....ـبَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ؟
خَفِّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْـ ....أَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ
وَقَبِيحٌ بِنَا وَإِنْ قَدُمَ الْعَهْـ ....ـدُ هَوَانُ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ
سِرْ إِنِ اسْطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رُوَيْدًا ....لَا اخْتِيَالًا عَلَى رُفَاتِ الْعِبَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مِرَارًا .....ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الْأَضْدَادِ
وَدَفِينٍ عَلَى بَقَايَا دَفِينٍ ....فِي طَوِيلِ الْأَزْمَانِ وَالْآبَادِ[٣٢]

استهل الشاعر قصيدته بتقنيّة بلاغية خبريّة ؛ ليعلن عن خبر يسترعي من المتلقي التمعن والإنصات للقابل منها، فيوجّهه وكأنه العالم المتخصص الذي ينتظر منه البوح بعقدة فلسفيّة مشوشة عند من حوله ؛ لأن الإنسان بنشأته الأولى يفتش عن تلك الثنائية ويحاول بكل ما لديه لمعرفة تلك الفكرة، فمنهم من يحاربها فلا يبالي ومنهم من يأخذ عبرتها فيستقيم، فقد ((حاول الإنسان في كل زمان ومكان أن يقهر الزمان، ويصرع الشر، ويسحق الموت، ولكنه لم يلبث أن تحقق من أن صراعه البائس ضد هذا الثالوث المارد الجبار إن هو إلا جهد ضائع لابد من أن يبوء بالفشل والخيبة والدمار)) [٣٣] ؛ لذلك ستبقى هذه الأخبار عن هذه الفكرة محط متابعة وترقب، وهذه الفكرة جاءت بصبغة خبرية عميقة تفوق ما أخبر به الهذلي في تفصيلاتها وإن كانا قد انطلقا من جذر وقضية مركزية تقوم على أساس مبدأ (الإحاطة المحكمة) فالموت محيط بالمتلقين على مر العصور ولا جدوى من المحاولة في الإفلات منه فعدم جدوى من البكاء عند المعري:

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي ....نَوْحُ بَاكٍ وَلَا تَرَنُّمُ شَادِ

والصورة المحكمة للموت نفسها عند الهذلي فيقول:

أَمِنَ المَنونِ وَريبِها تَتَوَجَّعُ ....وَالدَهرُ لَيسَ بِمُعتِبٍ مِن يَجزَعُ

وقلنا بعمق الصورة المعرية للموت نابعة من معاناة طويلة ؛ لذلك لم يلتزم الفناء الفني للقصيدة العربية القديمة التي تحول لها الهذلي سريعا وعالجها في مجريات قصيدته الرثائية، فرّكزَّ على مجريات هذا الخبر وحشَّد مجموعة من الأسماء (ملة – اعتقاد – نوح – باك – شاد) ؛ ليعطي للخبر حالة الثبات وصدق تلك الفكرة، لوّن الشاعر هذه الأخبار وتلك الأسماء بصبغة سرديّة ذات أبعاد فكريَّة مستمدة من واقع المتلقي ومقدمة بجانبها الضدي، وتكمن ((براعة الشاعر أو الأديب تكمن في قدرته بالربط بين الأشياء المتباينة، وإيجاد الصلة بين ما لا يظن وجود الصلة بينه من مظاهر الطبيعة، وينقل المشاعر التي يريد التعبير عنها من مجرد معان هائمة في نفسه إلى أشياء محسوسة مدركة))[٣٤]

والجمع بين الأضداد يجعل المتلقي أكثر تفكيرا ويمنحه حافزا للقبول والتأثر، فبرع في الجمع بين الأضداد ؛ ليمنح المتلقي بعدا تأمليا في تلك الأضداد التي تخضع لرؤية المتلقي اليومية فيتفاعل معها فكريا وعاطفيا فتثير فيه الرغبة للتأمل والتأثر ومن بين هذه الأضداد:

- (الحزن)، (الشادي)
- (باك) ، (ترنم)
- (صوت النعي)، (صوت البشير)

---

[٣٠] - ينظر تتمة يتيمة الدهر: ٦ وينظر نزهة الالباب في طبقات الادباء: ٢٥٧
[٣١] - ينظر : مقدمة الديوان : ١٢
[٣٢] - ديوان اللزوميات : ٦٧/١
[٣٣] -مشكلة الانسان، زكريا ابراهيم : ١٣٥٠
[٣٤] - النقد الادبي الحديث . محمد زغلول سلام :٦٦

- (البقاء)، (النفاد)
- (النهار) و (السواد)

هذه الأضداد وغيرها في القصيدة عمقت صورتي الحياة والكوت في تفاصيلهما السائدة عند المتلقي ؛ لأنها نابعة من رؤية عميقة ومتأملة لهذين الضدين، ولم تظهر تقنية التضاد بهذه الصورة المتكررة في بداية القصيدة في تصوير الهذلي ؛ لأنه ركز على فكرة واحدة وهي الموت وتجلياته في حياة الإنسان في أكثر من موقع فيقول:

وَإِذا المَنِيَّةُ أَنشَبَت أَظفارَها .....أَلفَيتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنفَعُ
فَالعَينُ بَعدَهُمُ كَأَنَّ حِداقَها ....سُمِلَت بِشَوكٍ فَهِيَ عورٌ تَدمَعُ
حَتّى كَأَنّي لِلحَوادِثِ مَروَةٌ ....بِصَفا المُشَرَّقِ كُلَّ يَومٍ تُقرَعُ
لا بُدَّ مِن تَلَفٍ مُقيمٍ فَانتَظِر ....أَبِأَرضِ قَومِكَ أَم بِأُخرى المَصرَعُ
وَلَقَد أَرى أَنَّ البُكاءَ سَفاهَةٌ ....وَلَسَوفَ يولَعُ بِالبُكا مِن يَفجَعُ[٣٥]

ففلسفة الموت واحدة، ولكن بواعث الشعر في الحديث عنها مختلفة، فمنطلقات أبو العلاء المعري تأملية، ومنطلقات أبو ذؤيب الهذلي رثائية نتيجة فاجعة فقد أولاده و((الرثاء من الفنون التي جوّد فيها الشعراء؛ لأنه تعبير عن خلجات قلب حزين،، وفيه لوعة صادقة، وحسّرات حرّى، ولذلك فهو من الموضوعات القريبة إلى النفس ؛ لأن الرثاء الصادق تعبير مباشر قلّما تشوبه الصنعة أو التكلف)) [٣٦] فبقيَ أبو ذؤيب مركزا على هذا المنطلق لسيطرتها على انطباعاته العاطفية فحركت خياله، فاقتنص عن طريقها صورا بيانية منسجمة مع تلك الأحاسيس الوجدانية [٣٧]، خلاف المعري الذي صبغ قصيدته بصبغة جماعية تأمليّة من أولها إلى نهايتها .

وتباين أبو العلاء المعري، وأبو ذؤيب الهذلي في عمق رغبتهما في الحياة، فشعر الهذلي ينبأ بألم وحسرة عند حضور الموت، فهو يتوجع ويتألم فيقول في مقدمة قصيدته:

أَمِنَ المَنونِ وَريبِها تَتَوَجَّعُ ....وَالدَهرُ لَيسَ بِمُعتِبٍ مِن يَجزَعُ

وغابت صوريا وشعورا هذه الحسرة وهذا الألم عند أبي العلاء، فنجده جليا في قصائد ديوانه [٣٨]، وكذلك قوله في قصيدتنا فيقول:

ضَجْعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ الـ ....جِسْمُ فِيهَا وَالْعَيْشُ مِثْلُ السُّهَادِ

ولعل هذا التباين يعود إلى الحياة التي يعيشها المعري، وسبق أن تحدثنا عنها في مقدمة البحث ومن أهمها العمى، والظروف النفسية التي خضعت وروضت بتعاليم الدين وأن هناك عالم آخر سيعوض هذا السجن الجبري استمد هذه الفكرة من القرآن الكريم فظهرت في شعره حركة الموت منسابة واضحة رغبة الشاعر في تبنيها فيظهر ذلك في قوله :

تَعَبٌ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أَعْـ ....ـجَبُ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادِ
إِنَّ حُزْنًا فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا ....فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ
خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ ....أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا ....لٍ إِلَى دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ

الرؤية الإسلامية لقضية الحياة والموت حضرت في شعر المعري بصورة تفوق شعر الهذلي، فلم يكتف بتوظيف قصص عاد مرّة في قوله:

صَاحِ هَذِهْ قُبُورُنَا تَمْلَأُ الرُّحْـ ....ـبَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ؟

ولا بقصة سليمان في قوله :

مِثْلَ مَا فَاتَتِ الصَّلَاةُ سُلَيْمَا ....نَ فَأَنْحَى عَلَى رِقَابِ الْجِيَادِ
وَهْوَ مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ....بِمَا صَحَّ مِنْ شَهَادَةِ صَادِ
خَافَ غَدْرَ الْأَنَامِ فَاسْتَوْدَعَ الرّيـ ....ـحَ سَلِيلًا تَغْذُوهُ دَرَّ الْعِهَادِ

وإنما أشار بصورة مباشرة عن النقطة المركزية التي تدور عليها فكرة الموت، وكيف يسيطر عليها الله سبحانه وتعالى في قوله:

بَانَ أَمْرُ الْإِلَهِ وَاخْتَلَفَ النَّا ....سُ فَدَاعٍ إِلَى ضَلَالٍ وَهَادِ
وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِيَّةُ فِيهِ ....حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ
وَاللَّبِيبُ اللَّبِيبُ مَنْ لَيْسَ يَغْتَرُّ ....بِكَوْنٍ مَصِيرُهُ لِلْفَسَادِ

وفي الجهة المقابلة لا نجد ذلك الظهور البارز للنزعة القرآنية في شعر الهذلي إلا من بعض الألفاظ من مثل (ريب المنون) الواردة في قوله تعالى: ((فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ))[٣٩] ، والحق أن هذه الألفاظ حاضرة في شعر شعراء الجاهلية مثل الأعشى في معلقته :

أَأَن رَأَت رَجُلاً أَعشى أَضَرَّ بِهِ ....رَيبُ المَنونِ وَدَهرٌ مُفنِدٌ خَبِلُ

وهذه الألفاظ الواردة في شعرهم عامة وشعر الهذلي خاصة عبارة عن ((إشارة إلى الشيء الواجب كالحتم والمنية والحمام أو إلى الوقت المحدد كالأجل واليوم ..ولكن هذا لم يمنعهم من ان يعلقوا بالقدر أشياء أخرى..وهم غالبا يذكرون القدر والدهر في

---

[٣٥] - الديوان:
[٣٦] - الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الدجبوري : ٣١١
[٣٧] - ينظر النقد المنهجي عند العرب، محمد منذور: ٣٨
[٣٨] - ينظر :/ شروح سقط الزند : ٩٧٨/٣ قوله : متى أنا في هذا التراب مغيب فاصبح لا يجنى علي ولا اجني
اسير عن الدنيا ولست بعائد اليها وهل يرتد قطن الى دجن
[٣٩] سورة الطور : ايه ٢٩

حالات اليأس والقنوط))[٤٠] ، وهذا ما ظهر في مفردات القصيدة بشكل واضح حتى أن القصيدة في مطلعها حضر (الدهر – المنون) .

وهذا الظهور لا يقلل من القيمة الفنية والأسلوب الذي عرض فيه الشاعر فكرته، وللشاعر مرجعياته الثقافية التي أظهرت النزعة الجاهلية على الإسلامية، فالهذلي عاش جل حياته في العصر الجاهلي، خلاف المعري الذي نشأ نشأة إسلامية وعاش الدعوة الإسلامية وتشرب بأفكار القرآن الكريم، فهو كما قلنا في بداية حديثنا ينتمي إلى عائلة دينية، على خلاف الهذلي الذي لم يعش إلا البدايات الأولى لهذه الدعوة، فظهرت مرثيته مصبوغة بالنزعة العربية القديمة التي عرف عليها شعراء ما قبل الإسلام، وإن لم يلتزم في تحولاته الشعرية نمط القصيدة القديمة، وخرج منها بعض الشيء في مباشرته موضوع القصيدة من دون أن ينتظر المرور بمقدمة طللية أو غزلية كما هو معروف في البناء الفني للقصيدة العربية، واكتفى بلوم زوجته ليجعل من سؤاله:

قالَت أُمَيمَةُ ما لِجِسمِكَ شاحِباً ....مُنذُ اِبتَذَلتَ وَمِثلُ مالِكَ يَنفَعُ
أَم ما لِجَنبِكَ لا يُلائِمُ مَضجَعاً .....إِلّا أَقَضَّ عَلَيكَ ذاكَ المَضجَعُ[٤١]

سببا للإفصاح عن حاله، وكشف المسبب لهذا الشحوب، وهو الداعي الأول لقول هذه الفكرة، فيباشر بالموضوع على غير عادة القصيدة الجاهلية التي تطيل الوقوف عند باب الحبيبة ووصف دارها التي غيرتها روامس الدهر والسماء ومن ثم التخلص إلى وصف رحلته المحاطة بالمخاطر، وهذه المباشرة لها دواعيها النفسيّة، فالفاجعة أخرجته من تلك البنائية العالقة في سلوكه الفني، لشدة هول المصاب فيقول:

أَجَبتُها أَن ما لِجِسمِيَ أَنَّهُ ....أَودى بَنِيَّ مِنَ البِلادِ فَوَدَّعوا
أَودى بَنِيَّ وَأَعقَبوني غُصَّةً ....بَعدَ الرُقادِ وَعَبرَةً لا تُقلِعُ
سَبَقوا هَوَيَّ وَأَعنَقوا لِهَواهُمُ ....فَتُخُرِّموا وَلِكُلِّ جَنبٍ مَصرَعُ
فَغَبَرتُ بَعدَهُمُ بِعَيشٍ ناصِبٍ ....وَإِخالُ أَنّي لاحِقٌ مُستَتبَعُ
وَلَقَد حَرِصتُ بِأَن أُدافِعَ عَنهُمُ ....فَإِذا المَنِيَّةُ أَقبَلَت لا تُدفَعُ
وَإِذا المَنِيَّةُ أَنشَبَت أَظفارَها ....أَلفَيتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنفَعُ
فَالعَينُ بَعدَهُمُ كَأَنَّ حِداقَها ....سُمِلَت بِشَوكٍ فَهِيَ عورٌ تَدمَعُ[٤٢]

ولكنها لم يخرج خروجا كليا عن تلك التقاليد الجاهلية في الحديث عن هذه الفكرة وظهرت عنده في سرد رحلة الكلاب ونهايتها الحتميّة، وهذه العودة أملته عليه ((الطبيعة الشعرية للعصر الجاهلي جعلت لغة رمزية وثيقة الصلة بلغة الأسطورة، بحيث ترتد أكثر الصور الشعرية إلى ميثولوجية مغرقة في القدم، وتتشكل الصور والتعبيرات تشكيلا جديدا تخفي معه الينابيع الدينية التي صدرت عنها هذه الصور وهذه التعبيرات))[٤٣] .

نستنتج مما تقدم أن الشاعرين اختلفا في عرض فكرتهما الموحدة في الحياة والموت، كل حسب مرجعياته الثقافية فأنتجا نصّين خالدين يوثقا هذه الفكرة العالقة في نفس المتلقي في العصور كافة، فنظر كل منهما من الزاوية الخاصة به، وتلك الزاوية عمقتها ثقافة الشاعر والظروف المحيطة به .

الخاتمة:

ان من أهم ما يجب ذكره بعد هذه الدراسة التي اعتمدت مبدأ الموازنة بين شاعرين من الشعراء العربية فذين هما أبو ذؤيب الهذلي وأبو العلاء المعري، وهما غنيان عن التعريف، لكن ذلك لا يمنع من تطرق البحث الى ذكر موجز لحياة الهذلي لكونه شاعرا مخضرا عاش عمرا في الجاهلية ثم أدرك الاسلام وأمضى فيه سبعا وعشرين سنة، أما المعري فهو ابن القرن الرابع القرن الذهبي في الحضارة العربية، وبعد أن ثنائية الحياة والموت في شعرهما توصلنا الى الآتي:

١- ان الشاعر الهذلي لا يختلف في نظرته لثنائية الحياة والموت عن نظر الشعراء الجاهليين، تلك التي يسودها التشاؤم، وقد يغلب عليها اللا مبالاة بالقادم من الايام، ولكن حياة الشاعر الهذلي حددت نظرته، بعد تعرضه لنكسات وحزن وألم غلب على شعره تلك النظرة اليائسة المتشائمة الممزوجة بقوة التحمل مدفوعة بالخوف من شماتة الأعداء، وتلك سمة خلق جاهلية موروثة، ما استطاع الشاعر التخلص منها فظلت حاضرة في شعره.

٢- تميز موقف الهذلي من ثنائية الحياة والموت بالتبدل نتيجة حتمية للحوادث النفسية المؤلمة التي ألمت به، فمن حياة اللهو والدعوة وحب الحياة الى الحزن والألم.

٣- فيما كان المعري ذا نظرة مختلفة لهذه الثنائية،مستندة الى تغير الحياة وتطورها وامتزاج الافكار واختلاطها،فاذا كان نظر الجاهلي فطري، صار عند المعري نظر فلسفي يستند الى المقولات ويحاكم الآراء، ويحاول أن يقدم رؤيته المختلفة عمن سواه.

٤- أن الشاعرين اختلفا في عرض فكرتهما الموحدة في الحياة والموت، كل حسب مرجعياته الثقافية فأنتجا نصّين خالدين يوثقا هذه الفكرة العالقة في نفس المتلقي في العصور كافة، فنظر كل منهما من الزاوية الخاصة به، وتلك الزاوية عمقتها ثقافة الشاعر والظروف المحيطة به.

٥- ظلت هذه الثنائية عند الشاعرين مسيطرة على جوهما الشعري ولم تغب أو تختفي،اذ حكمت الظروف النفسية على استمرارها وان اختلفت الرؤى والافكار.

---

[٤٠] - الحياة والموت في الشعر الجاهلي : ١٠٠
[٤١] - ديوانه:
[٤٢] - ديوانه:
[٤٣] - دراسات في الشعر الجاهلي، أنور ابو سويلم : ١٣٦

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم .
١-الأخلاق في الفكر العراقي القديم، حسن فاضل، بيت الحكمة، بغداد،١٩٩١م
٣- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٩٧٩م.
٤- أنساب الأشراف، للبلاذري أحمد بن يحيى ت٢٧٩ه،تحقيق، سهيل زكار، ورياض الزركلي،دار الفكر،بيروت، ١٤١٧ه.
٥- بنية القصيدة العربية المعاصرة، خليل الموسى، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٣م
٦- تاريخ الفلسفة في الاسلام، ت. ج. دي بور، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة ١٩٥٧م.
٧- تتمة يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور الثعالبي (ت ٤٢٩ه)، شرح وتحقيق . محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
٨- تجديد ذكرى أبي العلاء، طه حسين، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٢م
٩- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، الراغب الأصفهاني،دار مكتبة الحياة، بيروت
١٠- الحياة والموت في الشعر الجاهلي، د. مصطفى عبد اللطيف جياووك، منشورات وزارة الإعلام، العراق، ١٩٧٧م
١١- الحيوان، الجاحظ،تحقيق، عبد السلام هارون،المجمع العلمي الاسلامي، بيروت، ١٩٦٩م
١٢- جمهرة اللغة،ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي ت ٣٢١هـ، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند .١٣٤٥هـ.
١٣- دراسات في الشعر الجاهلي، أنور أبو سويلم، دار عمار، عمان، ط١، ١٩٨٧م.
١٤- ديوان اللزوميات،ابو العلاء المعري، شرح كمال اليازجي،دار الجيل، بيروت.
١٥- ديوان أبي ذؤيب الهذلي. تحقيق،أحمد خليل الشال، مركز الدراسات والبحوث الاسلامية،بور سعيد،٢٠١٥م.
١٦- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام،د. عبد الإله الصائغ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام،بغداد، ١٩٨٢م.
١٧- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٩٨٦،٥م
١٨- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، مطبوعات دار الفكر.
١٩- لسان العرب، لابن منظورت٧١١ه،طبعة دار صادر، بيروت.
٢٠- مسند أحمد بن حنبل،أحمد بن حنبل بن هلالت٢٤١هـ، المطبعة الميمنية، القاهرة،١٣١٣هـ
٢١- مشكلة الإنسان، زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت
٢٢- المفضليات و المفضل الضبي، تحقيق، أحمد محمد شاكر،وعبد السلام هارون،دار المعارف، مصر ط٣,١٩٦٤م
٢٣- المعجم الفلسفي، جميل صليوا، دار الكتاب اللبناني، بيروت
٢٤- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات محمد الأنباري (ت ٥٧٧ه)، تح. د. إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، العراق، ١٩٧٠م.
٢٥- النقد الأدبي الحديث- أصوله واتجاهات رواده، د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف – الإسكندرية، (د.ت)..
٢٦- النقد المنهجي عند العرب، د. محمد مندور، الطبعة الجديدة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت) .
٢٧- نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة، بيروت.
٢٨- شرح أشعار الهذليين،للسكري:٣/١
٢٩- المعجم الفلسفي، جميل صليوا، دار الكتاب اللبناني، بيروت